الفصل السادس
البينية

تمهيد:

إن البينية من لوازم وصفات الوسطيَّة، وحيث ذكرت ذلك مختصراً فإني أزيده هنا وضوحاً وبياناً، فأقول: إن إطلاق لفظ البينية يدل على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء، وقد يكون ذلك حسّاً ومعنى.

وعندما نقول: إن الوسطيَّة لا بد أن تتصف بالبينية، فإننا لا نعني مجرد البينية الظرفية، بل الأمر أعمق من ذلك، حيث إن هذه الكلمة تعطي مدلولاً عمليّاً على أن هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبعد عن الغلو والتطرف أو الإفراط والتفريط. وبهذا تكون البينية صفة مدح، لا مجرد ظرف عابر ومن هذا التفسير جاءت علاقة البينية بالوسطيَّة، وقد رأيت جمهوراً من العلماء ربطوا بين الوسطيَّة والبينية ولا غرابة في ذلك، فإن لهذا أصلاً في اللغة والاشتقاق، كما سبق بيان ذلك، وهو المتبادر إلى الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة.

المبحث الأول
أقوال العلماء في البينية

ولأهمية هذه القضية سأذكر بعض أقوال العلماء، ومن قال بذلك منهم في القديم والحديث[1].

---

(١) انظر: الوسطيَّة في ضوء القرآن.

١ ـ الإمام الطبري، حيث قال في تفسيره: (وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين طرفين، مثل وسط الدار. وأرى أن الله تعالى ذكره ـ إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)[١].

٢ ـ قال شيخ الإسلام: (فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة[٢] يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية[٣] والقدرية[٤] وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة[٥] والوعيدية من القدرية

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٦).

(٢) هم أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة فإنهم: الصحابةﷺ ومن سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم). انظر: الفصل في الملل والنحل (٢/١١٣).

(٣) سموا بذلك نسبة إلى الجبر، وهو جبر العبد وحمله على فعله، فهو كالريشة في مهب الريح، لا أثر له على فعله، فالفعل لله تعالى والعبد محله، وهم صنفان: خالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، ومتوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، والجهمية من فرق الجبرية. انظر: الملل والنحل (١/ ٨٥).

(٤) هم الذين يحتجون بالقدر ويقولون لو كان الله كارهاً فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه وظهر الكلام في القدر في عصر عبد الملك بن مروان وكان هذا في آخر عهد الصحابة، وأول من تكلم في القدر معبد الجهني الذي أخذه عن سوسن النصراني، ثم أخذ من معبد غيلان الثقفي لعنهم الله. تهذيب التهذيب (١٠/٢٢٦).

(٥) الإرجاء على معنيين: أحدهما التأخير، والمرجئة قد أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان، والثاني إعطاء الرجاء، والمرجئة قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة الجبرية، ومرجئة القدرية، والمرجئة الخالصة. انظر: الملل والنحل (١/ ١٣٩).

وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية[١] والمعتزلة[٢] وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج)[٣].

٣ ـ وقال الشيخ رشيد رضا: (إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط مثل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذمومٌ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهما)[٤].

٤ ـ وقال الدكتور يوسف القرضاوي[٥]: (ونعني بها ـ أي الوسطيَّة ـ التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متفاوتين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطعن على مقابله، ويحيف عليه، ثم ذكر بعض الأمثلة في ذلك)[٦].

٥ ـ وقال الأستاذ محمد قطب[٧] في كتابه (منهج التربية الإسلامية): إن الوسطيَّة هي التوازن، والتوازن هو العدل، حيث قال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وسطاً في كل شيء، متوازنين في كل ما تقومون به من نشاط، ثم بين أن الوسطيَّة تعني التوفيق بين أشياء كثيرة، كالتوفيق بين مطالب الفرد الواحد، وبين مطالب الجموع، والتوفيق بين العمل للعاجلة والآجلة وهكذا[٨].

٦ ـ وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي: (وبالجملة فإن الله العليم الحكيم

---

(١) فرقة من فرق الخوارج.

(٢) سموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وهم يقولون بخلق القرآن وبخلود مرتكب الكبيرة في النار، وأنه بمنزلة بين المنزلتين ونفي القدر، ويقولون العباد خالقون لأفعالهم، ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد، وهو عندهم العدل، ومنه وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله، وجوب التقبيح والتحسين العقليين. انظر: الملل والنحل (١/ ٤٣).

(٣) شرح العقيدة الواسطية (١٢٤).

(٤) انظر: تفسير المنار (٢/ ٤).

(٥) هو الشيخ الداعية الفقيه الدكتور يوسف القرضاوي من علماء الأزهر له جهود مشكورة في مجال الدعوة والعلم وهو الآن مقيم في قطر.

(٦) انظر: الخصائص العامة للإسلام (١٢٧).

(٧) محمد قطب من كبار مفكري العلماء الإسلاميين المعاصرين وهو الآن مقيم في مكة مدرساً في الدراسات العليا في جامعة أم القرى.

(٨) انظر: منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٨).

أمر بالتوسط في كل شيء بين خلقين ذميمين، تفريط وإفراط)[١].

٧ ـ وقال الدكتور عمر الأشقر[٢]: (من المعضلات التي لم ينجح المشرعون من البشر في حلها التطرف في التشريع، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين، وقلما يوفق واضعو القوانين إلى التوسط والاعتدال)[٣].

وقال في موضع آخر: (إذا نظرت إلى الشريعة الإسلامية وجدتها وسطاً في كل أحكامها، فأحكامها بين الغالي والجافي)[٤].

٨ ـ قال عمر بهاء الدين الأميري: (وقد كان من تدبير الله الحكيم العليم في هذه الأمة أن جعل وسطيتها في كل مجال: فهي موطن الرسالة الأولى، وفي ساحتها الحضارية المشعة المترامية الأطراف ـ من بعد ـ في مناخ محتمل، جو مسعف، لا في مناطق بركانية زلزالية، ولا لاظية استوائية، ولا متجمدة قطبية، حيث تقعد قساوة الطبيعة بالإنسان عن الحركة والنشاط والإعمار الحضاري.

وهي وسط في موقعها الجغرافي المهم، حيث كانت مهابط الوحي، أرض الإسلام ومهد الأمة الإسلامية الأولى فهي الوسط بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وهي مركز الوصل بين إفريقيا وآسيا وطرف ممتد من أوروبا، وهي الرباط البري بين الطرق المائية)[٥].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن وصفة البينية أمر أساس في تحديد الوسطيَّة، وأن هؤلاء العلماء والكتاب اعتبروا هذا الأمر قضية مسلمة في تحديدهم وتعريفهم للوسطية وهذه البينية ليست مجرد الظرفية، وإنما هي التي تعطي الدلالة على التوازن والاستقامة والعدل، ومن ثم الخيرية فهذه هي الوسطيَّة الحقة، وهذا الذي قرره علماؤنا العظام من السابقين واللاحقين كما بينت وفصلت.

---

(١) انظر: القواعد الحسان (٩٠).

(٢) هو عمر الأشقر من خريجي جامعة المدينة، ومن علماء فلسطين كان أستاذاً محاضراً في جامعة الكويت ثم انتقل إلى جامعة الأردن له سلسلة ممتازة في العقائد.

(٣) خصائص الشريعة الإسلامية (٨٦ ـ ٨٧).

(٤) خصائص الشريعة الإسلامية (٨٦ ـ ٨٧).

(٥) انظر: وسطيَّة الإسلام وأمته في ضوء الفقه الحضاري (٥٨).

المبحث الثاني
دليل تطبيقي لملامح الوسطيّة

وبعد أن اتضحت ملامح الوسطيَّة سأذكر دليلاً عمليّاً تبرز فيه جميع هذه الملامح، حيث يمثل أعلى درجات الوسطيَّة: عن أنس بن مالك ﷺ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[1].

وسأذكر ملامح الوسطيَّة من هذا الحديث:

أولاً: الخيرية

وهذا يتضح من قوله ﷺ: **«إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له»** ثم يبين أنه يأخذ بالوسطيَّة: فيصوم ويفطر، ويصلي وينام، ويتزوج النساء، فلولا أن هذا العمل لا يعارض الخشية والتقوى، بل يطرد معهما لم يذكرها في هذا المقام، واستخدم أفعل التفضيل «أخشاكم وأتقاكم» وهي أعلى درجات الخيرية.

فاتضح أن هذه الوسطيَّة التي يرشدنا إليها رسول الله ﷺ تمثل الخشية والتقوى وهذه هي الخيرية في أفضل صورها.

ثانياً: الاستقامة

وتظهر هذه الحقيقة في قوله ﷺ: **«فمن رغب عن سنتي فليس مني»** إذن فالاستقامة هي بأن يصوم ويفطر، وينام ويرقد، ويتزوج النساء، والخروج عنها انحراف عن الاستقامة، فهذا العمل الذي يمثل الوسطيَّة، لا نقول إنه لا يعارض الاستقامة، بل هو الاستقامة بعينها، حيث جعله الرسول ﷺ من سنته وهل الاستقامة إلا الالتزام بسنته

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣).

والأخذ بها.

ثالثاً: اليسر ورفع الحرج

وهذا أمر جلي وبين، فنحن بين عملين وردا في هذا الحديث، تبتل وامتناع عن النساء والزواج مع ما في ذلك من مشقة وحرج ويقابله تزوج النساء مع ما في ذلك من قضاء الوطر، والمودة والرحمة وإنجاب الأولاد.

الأول يمثل الانحراف عن سنة النبي ﷺ مع ما فيه من مشقة وعسر، والثاني يمثل الوسطيَّة مع ما فيه من تخفيف وتيسير ورحمة، ودفع الحرج. وقل مثل ذلك في الصيام والقيام.

إذن فالوسطيَّة في اليسر ورفع الحرج، وليس في التكلف والمشقة والعنت.

رابعاً: الحكمة

فإنه بالنظر إلى قدرة النفس ومدى تحملها وغفلة هؤلاء القوم عن قدرتهم في فورة الحماس والاندفاع، جاء الرسول ﷺ يضع الأمور في مواضعها، ويجعلها في مسارها الطبيعي، فإن أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه، ولو التزم هؤلاء الرجال بما قالوا لتعبوا عاجلاً أو آجلاً، ثم إن هذا الفعل نفسه مخالفة لصريح الحكمة وحقيقتها وذلك أن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، والإصابة في القول والعمل، وهذا هو عين ما وجه إليه ﷺ.

خامساً: العدل

وتبرز صفة العدل بالنظر إلى مطالب النفس وواجبات العبادة، فقد جعل لكل منها نصيباً، فعدل بين حق الرب وحق النفس، ولم يكن في ذلك حيف وشطط، وحاشاه من ذلك.

سادساً: البينية

والأمثلة تبرهن على ذلك:

١ ـ امتناع عن الزواج مطلقاً ـ إفراط، ويقابله التفريط وهو اتباع الشهوات دون

وازع أو قيد وبينهما قضاء الشهوة والوطر، ولكن ضمن الضوابط الشرعية، ويتمثل في الزواج وهذا هو الوسط، وهو المشروع.

٢ ـ صيام دائم ـ إفراط.

إفطار دائم ـ تفريط.

الصيام أحياناً ـ والفطر أحياناً وسط بين الأمرين وهو المشروع في ضوابطه الشرعية.

٣ ـ القيام مطلقاً ـ إفراط.

النوم مطلقاً ـ تفريط.

القيام والنوم حسب الطاقة ودون تكلف ـ وسط وهذا هو المشروع[1].

ومن خلال هذا التطبيق العملي لملامح الوسطيَّة في ضوء هذا الحديث، يتضح المراد، مما يساعد على فهم الوسطيَّة.

* * *

(١) الوسطيَّة في ضوء القرآن: (١٢٦ ـ ١٢٧).

خلاصة القسم الأول

يتَّضح للقارىء الكريم من خلال هذا الكتاب المتواضع في مجهوده عدة أمور منها:

١ ـ أن المعنى اللغوي لكلمة (وسط) تدل على معاني الخير، والعدل، والجودة والرفعة والمكانة العلية وما تصرف منها يؤول إلى معاني متقاربة.

٢ ـ من خلال أقوال المفسرين اتضح لي لا التزام بين الوسط والوسطيَّة فكل وسطية فهي وسط، ولا يلزم من كل وسط أن يكون دليلاً على الوسطيَّة، فقد يكون من الوسط المكاني أو الزماني ونحوه.

٣ ـ ومن خلال ما ذكره علماء التفسير يتبين لنا أن كلمة الوسط، تستعمل في معانٍ عدة أهمها:

أ ـ بمعنى الخيار والأفضل العدل.

ب ـ قد ترد لما بين شيئين فاضلين.

جـ ـ تستعمل لما كان بين الجيد والرديء، والخير والشر.

٤ ـ وتبين لي أن الوسطيَّة تطلق على الأمر الذي فيه خيرية وبينية وأن أي أمر اتصف بالخيرية والبينية فهو الذي يصح أن يطلق عليه وصف الوسطيَّة حيث اتضح لي تلازم بين الخيرية والبينية في إطلاق مصطلح الوسطيَّة.

٥ ـ لا نستطيع فهم الوسطيَّة حتى نفهم أسسها وهي الغلو أو الإفراط والجفاء أو التفريط والصراط المستقيم.

٦ ـ كل أمر فيه غلو أو إفراط فهو خروج عن الوسطيَّة.

٧ ـ كل أمر اتصف بالتفريط أو الجفاء فإنه يخالف الوسطيَّة وبمقدار اتصافه بأي من

هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطيَّة وتجافيه عنها.

٨ ـ إن الصراط المستقيم يمثل قمة الوسطيَّة وذروة سنامها وأعلى درجاتها.

٩ ـ إن المقياس المعتبر في فهم الوسطيَّة هو الشرع، وليس ما تعارف عليه الناس من مداهنة وتنازل وتساهل.

١٠ ـ إن هناك عوامل كثيرة، وأصولاً معتبرة تجب مراعاتها عند ضبط مفهوم الوسطيَّة وتطبيقها على أمر من الأمور، حيث إن قصر النظر عن أمر دون آخر يؤدي إلى الانحراف عن مفهوم الوسطيَّة.

١١ ـ للوسطية سمات وملامح تحف بها وتميزها عن غيرها، ومن أهم هذه الملامح سمة الخيرية، وسمة العدل، وسمة اليسر ورفع الحرج، وسمة الحكمة، وسمة البينية، وسمة الاستقامة.

١٢ ـ إن خيرية هذه الأمة تتحقق بأمور أهمها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

١٣ ـ إذا قارنت بين اليهودية والنصرانية والإسلام في دنيا الناس اتضحت وسطية الإسلام.

١٤ ـ إن سمة اليسر والتوسعة ورفع الحرج قضية منهج متكامل وليست تتعلق بجزئية أو جزئيات كما يتصور بعض الناس. وأن هذا ملمح من ملامح الوسطيَّة، ولا نستطيع فهم الوسطيَّة إلا إذا فهمنا هذه السمة البارزة في ديننا.

١٥ ـ إن الحكمة هي وضع الشيء في محله وهي سمة مهمة من سمات الوسطيَّة؛ بل من أهم سماتها.

١٦ ـ إن الاستقامة على منهج الله هي عين الوسطيَّة وجوهرها الأصيل.

١٧ ـ إن صفة البينية أمر مهم في تحديد الوسطيَّة وهذه البينية ليست مجرد الظرفية، وإنما هي التي تعطي الدلالة على التوازن والاستقامة والعدل، ومن ثم الخيرية فهذه هي الوسطيَّة الحقة، وهذا ما قرره العلماء الكرام من السابقين واللاحقين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.